منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عبـــده وازن

قلبٌ مفتوح

قلبٌ مفتوح

قلبٌ مفتوح

عبـــده وازن

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-919-2

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

فتحت عينيّ كما لو أنني أفيق من نوم طويل، كان الظلام من حولي خفيفاً. لم أدر إن كان ليلاً أو نهاراً. ردهة واسعة أدركت حين أدرت ناظريّ أن فيها أسرّة أخرى، وأنّ على سرير بالقرب مني ينام رجل يرفع صوته حيناً تلو حين، ولكن من غير أن ينبس بأي كلمة. ناديت بملء صوتي: إنني عطشان. لم يسمع أحد، وسرعان ما أدركت أنّ لا صوت لي. رحت أطرق بيدي على خزانة صغيرة الى جانبي. أتت ممرضة، أشرت إليها بيدي انني عطشان. سمعتها تقول: بعد قليل. غفوت ثم صحوت. جاءت الممرضة بقليل من الماء.

عندما فتحت عينيّ جيداً وعاد صوتي إليّ تذكّرت، أول ما تذكّرت، كيف مدّدوني على سرير العربة البيضاء ثم كمثل رجل ثمل أو مخدَّر استسلمت لنعاس لطيف تشوبه حال من النشوة. كانت هذه اللحظات آخر ما أذكره قبل أن يقودوني الى غرفة الجراحة. كانت خطواتهم تلك حاسمة، فإمّا أن أخرج حيّاً من هناك وإمّا... لم أبصر أحداً حينذاك سوى الممرّضين، لم يأتِ أحد ليلقي عليّ نظرة أو لألقي عليه نظرة. عبرت هذه اللحظات بسرعة، ثمّ غبت ببطء. كان ذاك أثر البنج الذي حقنوه في كيس المصل، البنج الذي رماني في نوم عميق، خلوٍ من الأحلام. إنها من المرات القليلة لا أحلم فيها أو لعلني لم أتذكر ما حلمت به.

فأنا أشعر دوماً أنني لا أستيقظ من نوم بل من حلم. تُرى الى أين ذهب بي ذاك الدواء المخدّر؟ في أيّ وهدة رماني، وحدي بلا أحلام ولا ذاكرة؟

إنني أتذكر الآن، أستعيد ما حصل كما لو أنّه حصل البارحة أو ما قبلها أو الشهر الفائت. كأنني خرجت من باب لا أذكر ما كان وراءه ووجدت نفسي صدفة أمام الضوء، فبهرت عيناي. كان عليّ أن أسترجع نفسي ولكن لا أدري من أين. أمن عتمة لم تكن عتمة أم من نهار ساطع لا يشبه النهار؟ أمن حقل فسيح كانت تنأى به غيوم ليست كالغيوم؟

إنني أتذكر الآن. أستعيد لحظات كأنني لم أعشها، بل أشك إن كانت في صميم الزمن أم خارجه، الزمن الذي فقد معالمه فأضحى لا زمنياً، طويلاً أو سريعاً أو...

اللحظة الأشد حرجاً كما أذكر، كانت عندما تعرّيت أمام الممرض. إنها المرة الأولى أتعرّى أمام رجل. لطالما كرهت هذه الفكرة وخجلت منها، بل لطالما آلمتني وتمنيت ألا أضطرّ يوماً إلى أن أتعرّى أمام رجل. حتى في طفولتي لم أكن أتعرّى إلا بين يدي أمّي. لم أكن أخجل فقط، بل كانت هذه الفكرة تزعجني. الرجل خلق ليتعرّى أمام المرأة. أمامها يشعر أن جسده أصبح جسدها، وأنّ لا هوّة بينهما ولا غربة أو عزلة. أما أن أتعرّى أمام رجل فهذا ما لم أكن أحتمله. كيف سينظر إليّ؟ ماذا سيرى؟

لماذا أتذكر للحين هذه اللحظات القاسية أو الحرجة مع أنها لم تكن سوى لحظات عابرة؟ لماذا وحدها تلك اللحظات

تهبّ من قلب هذا الظلام الذي ليس بظلام؟

راح الممرض يُعمل الشفرة حالقاً شعر الجسم، ما بان منه وما خفي في زواياه. يمرّر الشفرة وكأنها سكين. هذا ما خامرني وعشته للحظات بدت طويلة. من الصدر الى الحوض فالساقين... لم أكن أنظر إليه ماذا يفعل. كنت أحس الشفرة تمرّ بقسوة على جلدي. حين انتهى، دخلنا الحمام وراح يدلق عليّ الماء ثم قال لي: تستحمّ الآن وحدك. تنفست قليلاً. نظرت الى جسدي فألفيته أبيض خالياً من الشعر. لا شعر هنا ولا هناك. غاب الشعر الذي طالما انتظرته في مقتبل مراهقتي كي أتأكد أنني أصبحت رجلاً. أذكر ان هذا الشعر، عندما راح ينبت، جعلني أحس انني كبرت. وكان عليّ حينذاك أن أمتنع عن الارتماء بين يدي أمّي عارياً، وبت أستحمّ وحدي، أحمّم نفسي بنفسي. كان ذاك الشعر أشبه بالخيط الذي فصل بيني وبين طفولتي، بين جسدي ويدي أمي.

كانت لحظات قاسية تلك التي حلق فيها الممرض شعر جسمي. لا أقدر الآن على وصف تلك الأحاسيس الأليمة التي انتابتني. تذكرت كيف كنا ننتف ريش العصافير التي كنا نصطادها صغاراً فتصبح كلها متشابهة. شعرت أنني عصفور بلا ريش ولم يبق لجسمي أي أثر أو شكل. أصبحت بلا جسم. كثيراً ما ظننت أن شعر الجسم هو الذي يصنع الجسم، هو الذي يمنحه شكله أو لأقل معناه. جسم بلا شعر هو جسم بلا هوية. إنه جسم خنثوي، لا جسم رجل ولا امرأة.

لكنّ الممرض لم يكن يبالي بجسدي. إنه واحد من أجساد كثيرة مرّت عليها شفرته. ولا أدري لماذا شبّهته بالجزار الذي لا

تميّز سكينه بين ذبيحة وأخرى. إنها الشفرة وليس هو. كان يبتسم دون أن ينظر إليّ جيداً. لم تكن عيناه تتلصصان على جسدي ولا كانتا تأبهان له، وكأن يديه هما اللتان تعملان وحدهما.

لا أذكر أمراً مما تلا غيبوبتي أو نومي المصطنع. كان جسدي بين أيديهم. قيل إنهم فتحوا صدري وأبدلوا الشرايين الموصدة بأخرى أخرجوها من ساقي اليسرى. لم أسأل كثيراً عمّا حصل وكيف، تكفي صورة فتح الصدر. لكنّ الجروح تشهد. جرح في الصدر، جروح في الساق التأمت ويبست ولكن بقيت آثارها وستبقى. عندما نظرت الى جروحي في المرآة تهيّأ لي أنني أنظر الى جسد ليس بجسدي. الجروح تمنح الجسد حقيقة أخرى، وهماً آخر. يصبح كأنه جسد في لوحة أو في صورة أو في رواية. الجروح تصالح بين حطام الجسد وضوء الروح المنبثق من الداخل. إنها علامات الألم الصامت، غيوم في سماء المرآة التي أقف أمامها.

كان جسدي بين أيديهم، يفعلون به ما يشاؤون، أنا كنت غائباً، لا أدري أين. أتخيل هذا الجسد بين أيدي أناس لا أعرفهم، جسد غريب بين أيدي أناس غرباء، يُحنون عليه، يُعملون فيه مباضعهم، يبصرون الدم ينبثق منه ثم ينحنون فوقه برقة قاسية، يرسمون على صفحته جرحاً تلو جرح ويكتبون تاريخاً جديداً له.

الآن سأعتاد على أثر الجرح الذي في الصدر. سيصبح صديقي. أسمّيه ندبة من ضوء، إشارة، صرخة، صرخة الحياة نفسها. إنه خيط الصبح الذي يشق الليل فاصلاً بين أمسٍ وغدٍ.

الآن أصبح للجسم ماضٍ، أصبح للجسم ذاكرة، هي ذاكرة جروحه.

مللت النوم على السرير. المشي في الغرفة أو في الرواق خارجها ممل أيضاً. النافذة لا تطلّ على منظر. أبنية الى جانب أبنية. أسأل ماذا يفعل الناس هناك؟ إنه العالم وراء النافذة وهنا أقبع في غرفة بيضاء. أنظر الى العالم وأتأمّل. نادراً ما كنت أتأمل مثلما أتأمل الآن. أفكار تتلوها أفكار. صور تطفو على وجه ماء الذاكرة.

من أين تأتي هذه الصور كلها دفعة واحدة؟ صورة المسيح لا تغادر عينيّ بوجهه النازف، والإكليل الذي ضُفر به رأسه، بجسده المجروح وخاصرته التي طعنها الرمح. تعبر عينيّ صورة يوكيو ميشيما يؤدي شخصية القديس سباستيان بجسده المكلوم والرمح الذي يخترقه. أين شاهدت هذه الصورة التي لم أنسها؟ في أي كتاب؟ لا أذكر. تعبر عينيّ أيضاً صورة الحلاج معلّقاً على الخشبة يلقي على جلاديه نظرات فيها من الألم ما فيها من الحبور، غافراً لهم، صارخاً: أقتلوني...

الليل طويل. يبدأ هنا باكراً لدى انحدار الشمس وحلول أول خيوط العتمة. الصباح طويل أيضاً، يبدأ عند انبثاق أول الضوء. للمرة الأولى يتشابه الليل والصباح، في بطئهما يتشابهان، في السأم الذي يعتمل في أقصى الروح. لا أنام جيداً ولا أصحو جيداً. قليل من الألم يتوزع صدري والساق بجروحهما التي لم تلتئم. أطفئ الضوء. الأصوات في الخارج لا تخبو. أريد أن أنام. حبّة المنوّم وحدها تحملني الى نعاس شفيف بلا أحلام.

ولكن إذا استيقظت صدفة يصبح النوم مستعصياً. ولا حبة أخرى. "ممنوع" كانت تقول الممرضة.

الليل طويل حقاً. هذا ليس ليل القديس يوحنا الصليب ولا ليل نوفاليس. إنه الليل الخارجي، المغلق، الخالي من النجوم، من الأحلام، من الأضواء المتناثرة. ليل على تخوم الليل ذاك الذي يشرق كعادته من حفرة في الداخل.

الصباح طويل أيضاً. هذا ليس بالصباح الذي كنت أنتظره، افتح عينيّ على زرقته محدّقاً في السماء البعيدة، وكنت أبصر في أحيان على أطرافه طيف القمر وقد أضحى رقيقاً مثل قربانة. الصباح كئيب هنا. إنه أول الملل الذي سيحلّ طول النهار مصحوباً بأحاسيس غامضة. النافذة كنت أدعها مغلقة صباحاً ومساء. لا حاجة بي أن أنظر الى خيوط الفجر منها. وأيّ فجر هذا المفعم بالحيرة والسأم. كانت الستارة التي تفصلني عن الخارج تمنحني القليل من الراحة، لكنها كانت تجعل الوقت طويلاً رتيباً لا يقطع خيطه إلا الممرضون والممرضات وبعض الزائرين عندما سمح لي برؤيتهم بعد إخراجي من غرفة العناية. هكذا كان الإحساس بالزمن بليداً وكأن الزمن لا وجود له، زمن واحد بلا نهاية. كنت أنتظر حلول أول الظلام لأتناول حبّة المنوّم وأغفو مستسلماً لنوم متقطّع. وكنت حين أستيقظ غفلة أحس أن الوقت، لا نهاية له ولا بداية، وقت لا يشبه الوقت، وأسأل نفسي: متى ينقضي؟

كنت أفكّر في الموت. كيف لا أفكر فيه بعدما أطللت على وادي ظلاله. لكنني لم أكن خائفاً. لم أشعر بالخوف لحظة. كان هناك ضوء، في ما وراء العينين، في القلب أو الروح. هو

الضوء نفسه الذي لاح لي عندما وقفت أمام المرآة بجروحي. ضوء عذب كان يغشاني سراً، يجعلني أهبة للحياة، يملأ عينيّ بزرقة سماوية. كانت صلاة ترتفع بصمت من القلب وأعمق، كانت ترتفع من تلقائها مثل غيمة. كان الطفل الذي استيقظ فيّ للحين يتمتم كلماته المقدسة، بحرقة ورجاء، محدّقاً في البعيد الذي يترامى خلف النافذة. الطفل الصغير الذي يرافقني بالسرّ، كان يظهر دوماً في اللحظات العصيبة، يبتسم لي، يحدثني، يقودني بيده الى عالم أعجز عن وصفه، عالم كأنه من صور وأخيلة وأطياف... عالم يشع فيه فجر البراءة الأولى، حجر الشمس النقية. كان الطفل يصلي بشفتيّ، ينظر بعينيّ وكنت بشفتيه أصلّي وأنظر بعينيه. كان هذا الطفل الراقد فيّ ظلاً خفياً لي، وكنت ظلاً له، يصلّي وكأنه يصلّي لي وليس لنفسه. إنها صلاة الطفل ممزوجة بصلاة الأم أسمعها تتهادى من البعيد الذي ليس ببعيد.

كنت أفكر في الموت. فكّرت فيه كثيراً ولكن لم أخف. قوة ما كانت تنبض فيّ. إنها الحياة نفسها تندفع مثل ينبوع خفيّ. أيقنت مرة أخرى انني كائن ديني مهما ابتعدت أو اغتربت عن نفسي، مهما جدفت وهرطقت. ترسّخ لديّ هذا الاعتقاد أكثر فأكثر في تلك اللحظات الطويلة. هكذا كنت، هكذا أبقى. إنني كائن ديني بالفطرة، كائن فتح عينيه على الموت، كائن كان الدين النسمة الأولى التي انسلّت الى رئتيه، كائن لم يكن لولا المعجزة التي حفرت على جسده جرحها الأزليّ. كائن ديني حتى في اللحظات التي كنت أشك فيها، أشك وألحد،

وأسأل وأحار ولا أنتظر جواباً. كائن دينيّ بالدم، بالغريزة النقية، باللاوعي الأعمق من العالم. هذا ما خبرته برهبة، وحيداً أمام ذاتي، أمام مرآتي الداخلية. هذا ما تعلّمته أيضاً من أصدقاء يحيطون بي، قديسين ومتصوفة وأولياء قدموا الى هذه الحياة وكأنّهم لم يقدموا إليها.

لا أدري لماذا تأتيني هذه الأفكار الآن. لماذا أفكر في الحياة وما وراءها، في الموت، في الضوء الذي يعقبه، في الشمس التي تترامى خلفه. أفكار تلو أفكار، تخز هذا الجسد، هذه الروح التي هي الجسد الآن.

كم آلمني أن أبصر نفسي على الكرسي النقال يجرّه الممرض في المماشي الطويلة بين طابق وآخر. فكرة هذا الكرسي كانت تؤلمني. أجلس عليه برداء أبيض وأنظر الى أناس من حولي لا أعرفهم. لا أدري ما كان ينتابني في تلك اللحظات. إنني مستسلم لمن يقودني الى غرف أخرى، بيضاء أيضاً، بغية إجراء بعض الفحوص. هنا أقف أمام ما يشبه الكاميرا لالتقاط صورة تشمل الصدر. هناك أتمدد على طاولة مستطيلة هي أشبه بسرير ضيق وورائي شاشة تكشف نبض القلب. وقد زرع صدري بآلات صغيرة تُلصق لصقاً... عندما كنت أنزل عن الكرسي كان يعاودني شعور بالراحة، فأتنفّس.

الآن أتنفس بحرية. لقد أفرغوا الماء من الرئتين، هذا ما قيل لي. ماء يقتل ولا يروي وكاد يخنقني قبل أيام. أفرغوا أكثر من ثلاثة ليترات. أيّ ماء هذا الذي كاد يجرفني؟ الآن أصبحت جاهزاً للجراحة! هذا ما قيل لي.

في ذلك الصباح لم يأتِ الممرض بكرسي نقال بل بسرير صغير أبيض تمددت عليه واستسلمت فجأة لنوم طويل، نوم لم أعرف أنه انتهى إلا عندما استيقظت أو ظننت أنني استيقظت. قيل لي إنني أمضيت ليلتين في غرفة العناية بعد الجراحة. هاتان الليلتان مرّتا بسرعة وكأن شخصاً آخر أمضاهما، فأنا لا أذكر منهما سوى ملامح ضئيلة ومبهمة. كأنهما ليلتان محذوفتان من روزنامة الحياة، ليلتان كنت فيهما خارج الحياة وداخلها في آن واحد.

إنها المرة الأولى لا أحلم خلال الليل. معظم تلك الليالي في المستشفى، عبرت بلا أحلام. وما خيل إليّ أنني أبصرته لم يكن إلا شظايا أحلام كانت تنبثق عند إغماضة العينين. لا أدري أهي حبات الدواء التي أتناولها تجفف المخيلة وتعطب الذاكرة الخفية، أم هي الحال النفسية التي عرفتها وأنا في الغرفة البيضاء هيمنت على عالم الباطن وأطفأت شموعه؟ استغربت كيف لا أحلم، أنا مدمن الأحلام، في النوم واليقظة، الذي يخال الحياة شريطاً متقطعاً من أحلام لطيفة أو غريبة أو قاسية. وكنت في أحيان يختلط عليّ الأمر فلا أميز بين حلم أنهض منه وواقع أقبل عليه.

إلا أنني لم أستعد أحلامي عندما خرجت من الغرفة البيضاء الى المنزل. كنت أظن أن الأحلام ستعود وحدها عندما أرجع إلى سريري الأليف. لكنها لم. كان عليّ أن أقضي ليالي لا أذكر كم، حتى ترجع أحلامي إليّ أو أرجع إليها. ثم رجعت، على رغم الألم الذي لم يفارقني مصحوباً بوحشة شفيفة.

كنت شبه نائم عندما دخل الكاهن غرفتي برفقة ممرّضة.

كانت الساعة السابعة صباحاً. فوجئت بالكاهن يحمل كأساً، وسألني: أتريد أن تتناول؟ لمعت عيناي للحين. كم أحببت هذه الكأس! كم من مرات أحنيت رأسي أمامها، طفلاً بل فتى، عندما كان الكاهن يرفعها أمام المذبح. لم أكن أتخيّل أنني سأبصر كاهناً يحمل الكأس المقدّس قرب سريري. مضى زمن طويل لم أبصر فيه هذه الكأس. لم يسألني الكاهن الى أي طائفة أنتمي. فهو يسأل المريض إن كان يرغب في المناولة وعلى المريض أن يقول نعم أو لا. عندما ناولني القربان الذي كان قد صلّى عليه، شعرت بطعم النبيذ البهيّ. كان الكاهن أرثوذكسياً، هذا ما عرفته من طعم النبيذ. فالأرثوذكسيون يغمّسون القربان بالنبيذ رمزاً الى جسد المسيح ودمه. أما نحن فكنّا نتناول القربان فقط، كان النبيذ يظل في كأس أخرى والكاهن وحده هو الذي يشربه. عندما ناولني الكاهن هذا القربان بالملعقة الصغيرة استعدت لحظات باهرة في طفولة ذاك الفتى الذي كنته. وعندما غادر الكاهن رحت، بفرح كبير، أسترجع ذكرى هذه الكأس. كان على الكاهن أن يكمل جولته على المرضى ليناولهم، كما تقتضي العادة في مثل هذا المستشفى، مستشفى القديس جورج. بقي طعم القربان والنبيذ في فمي، واكتشفت أن القربان، مغمّساً بالنبيذ، يختلف عن القربان الذي كنا نتناوله. فالنبيذ يمنح القربان طعماً شبه فردوسي. وتذكّرت كيف كنّا نتسلّل الى الغرفة الخلفية للكنيسة التي كنا نسمّيها "السكرستيا"، وهذه لعلها كلمة سريانية، ونفتح الخزانة الملأى بالقربان وقناني النبيذ ونروح نأكل القربان ونشرب القليل من هذا الماء الروحيّ. كان يحق لنا أن نمسّ القربان بأيدينا ما دام

الكاهن لم يصلّ عليه. كان القربان الأبيض طيب الطعم، خفيفاً ورقيقاً. أما النبيذ فكان حلو المذاق على خلاف النبيذ العادي. وكان الكهنة يشربون دوماً النبيذ الحلو في القداس ربّما لأنّه أخفّ وطأة عليهم في الصباح، فلا يثملون ولا يصيبهم دوار. فالكاهن كان يجب عليه أن يحتفل بالقداس صائماً وقبل أن يتناول فطوره. وكان على الراغبين في المناولة أن يكونوا صائمين أيضاً، فالقربانة يجب أن تكون أول ما يدخل فم المتناولين، ثمّ يأكلون من بعد. كانت القربانة جميلة، قطعة من الخبز الحلو، رقيقة ومستديرة كأنها قمر صغير. لم أنسَ يوماً طعمها على رغم الأعوام الطويلة التي مرّت على طفولتي. ولم تفارقني البتة، برمزها أو مجازها، ولطالما شبهت بها القمر الذي فاته الرحيل في الصباح، فارتفع ملء السماء برقته الشفيفة.

كانت المناولة الأولى حدثاً في طفولتنا. الراهبات والمعلّمات كنّ يهيّئننا لها قبل أشهر. وكان علينا أن نفهم معنى هذه المناولة، وأن نحفظ غيباً فعل الندامة الذي كنّا نتلوه أمام الكاهن، بعد الاعتراف بخطايانا، وعبره نتوجه الى الله مستغفرين إياه، نادمين على ما اقترفنا من "آثام". لم أعد أذكر سوى مطلع هذا "الفعل": "إنني نادم من كلّ قلبي...". لم تكن المناولة مسموحاً بها قبل الاعتراف. فالخاطئ لا يحقّ له أن يتناول. ومن يقترب من المذبح يجب أن يكون نقياً مثل ملاك.

وأذكر كيف كانت مدرستنا تحتفل بهذه المناولة الأولى كلّ سنة. كنّا في هذا اليوم الجميل نرتدي حلّة بيضاء وعلى صدرنا صليب من خشب، وحول حقوينا زنار تتدلى منه زهرة من خيوط

بيـض. وكنـا نصطـفّ، فتيانـاً وفتيات، ثم ننطلق مشـياً وبهدوء الى الكنيسة التي تبتعد قليلاً عن المدرسة. الكاهن يتقدّمنا مع خدّامه، ثم فتيان "الأخوية" وفتياتها، أما الأهل والأقارب فيمشون وراءنا. وكان الناس يخرجون من بيوتهم أو يقفون على الشرفات لينظروا إلينـا مبتسـمين. وعندمـا نصـل الـى الكنيسـة نجلـس في الصفوف الأماميـة وكلّ يعـرف مكانـه. كان القـداس احتفاليـاً، ينتظـره أهـل البلدة سـنة تلو أخرى ليحتفوا بهؤلاء الصغار الذين تناولوا جسـد المسـيح للمرّة الأولى. وعندما كان ينتهي القدّاس كنّا نتوجّه الى مائدة أُقيمت في باحة الكنيسة فنجلس إليها ونتناول فطوراً لم نألفه يوماً في بيوتنا، بما يضم من مأكولات لذيذة وحلويات. ولا أدري حتى اليوم لماذا كانت الكنيسة تولي المناولة الأولى هذا الاهتمام، مع أنّ العمادة كانت هي اللحظة التي تكرّس الطفل مسيحياً قبل أن يعي هذا العالم، وقبل أن يدرك وجوده فيه. وغالباً ما كان طقس العمادة مقصوراً على الأهل فقط وخلواً من الطابع الاحتفالي.

كنت كلّما قرأت قصائد رامبو وريلكه عن المناولة الأولى أو المتناولين، أتذكّر تلك اللحظات الجميلة من الماضي الفردوسـيّ الذي لم يبق له زاوية ولو صغيرة في عالمنا، هذا العالم الذي يزداد قبحاً وصلافة. لكنني، كما أذكر، لم أتمكّن من تحمّل مشهد في فيلم للمخرج لوي بونويل، إن لم أخطئ، يتحدّث فيه عن القربان وكيف يأكله المتناول وكيف... وما زلت آنف عن ذكر بقية الجملة، فالقربانة ظلّت في حسباني مأكلاً روحياً، من ضوء وعطر.

كانـت الأيـام طويلـة في المستشـفى كما فـي المنزل لاحقاً، أو في غرفتي. في الخارج هو الشـتاء، بأمطاره وسـمائه الكالحة

وغيومه التي تعبر وراء النافذة. كانت النافذة ملجأي الوحيد حين يحل بي الملل، أهرب إليها لأنظر الى العالم كما للمرة الأولى. المنظر يوحي بالصمت. الصخب في الخارج هو صخب الخارج، صخب العالم الذي انفصلت عنه طوال تلك الفترة. في الأيام الأولى لم أتمكن من القراءة ولا من الاستماع الى صوت فيروز والى مقطوعات موسيقية أحبها. كان صوت فيروز يوقظ فيّ كثيراً من الشجو، أما الموسيقى فتحزنني. ولكن لم ألبث أن استعدت عاداتي الجميلة، رويداً رويداً. رحت أستمع الى أغاني فيروز ومقطوعاتي الأثيرة علّني أنسى، علّني أجد قدْراً من عزاء. رحت أقرأ وأقرأ مع أن الجلوس لم يكن مريحاً. هناك جرح في الأسفل لا يدعك قادراً على الجلوس إلا فترة قصيرة، ساعة، بل نصف ساعة. كنت أمشي ببطء حتى يأخذ بي ألم الساق المجروحة، فأجلس لأقوم من ثم، فأمشي أو أقف. هذه كانت طريقتي في قتل هذا الضجر الذي لا يوصف. إنها المرّة الأولى أدرك معنى الوقوف، معنى ألا تكون قادراً على المشي ولا على الجلوس. حاولت أن أكتب، لم أستطع. الورقة البيضاء كانت تشعرني بالبرد، وكنت عاجزاً عن حمل القلم. إنني وحدي أمام نفسي، أمام مرآة نفسي، أستعيد صوراً من ماضيّ متأملاً الشخص الذي كنته، الشخص الذي هو أنا الآن. كانت الورقة التي عجزت عن أن أمرّ بقلمي عليها أشبه بالمرآة التي تعكس البرود الذي يكتنف الروح واليدين والأصابع.

لكن الأفكار، الأفكار وحدها، لا أدري من أين كانت تأتيني الأفكار. نسيت الروزنامة التي على الجدار، بل لم أكن أبالي بها.

الزمن واحد، نهاراً وليلاً، والنوم شبيه اليقظة التي لم تكن تعني إلا الاستسلام لحال من الانتظار.

كان على الاستحمام أن يكون سريعاً. يجب ألا أمكث طويلاً، عارياً تحت الماء، مثلما كان يفعل الرهبان قديماً لئلا ينفردوا بعريهم. لم يكن لي أن أنعم بالماء ينهمر عليّ، على هذه البقايا منّي. والسبب أن الجروح لم تلتئم والماء يؤخر التئامها. وكان في القدم جرح مفتوح مصاب بالتهاب. لم يندمل هذا الجرح ونزف كثيراً، دماً وماء أصفر، وكنت أحنو عليه وحدي، غسلاً وتطهيراً، ثم أغطيه بالقطن فلا يظهر له أثر. كنت دوماً أنظر الى جسمي ببياضه الطفولي. الساقان ما زالتا بلا شعر وكذلك الحوض أو العانة. وكان يؤلمني هذا المشهد قليلاً ويضحكني قليلاً. لكن شعيرات ما لبثت أن راحت تنبت، وكنت أشعر أنني أكبر معها، أنني أستعيد الزمن الذي غاب فجأة منذ أن حلقوا شعر الجسم. في تلك اللحظات كان يستحيل الجسم ذاكرة تخفي في ثناياها ماضياً مفعماً بالألم والحيرة. أليس الجسم هو التاريخ الشخصيّ للكائن؟ أليس هو ذاكرته التي لا تخمد؟

أكتب الآن وكأنني أكتب عن شخص آخر. حتى الآن ما برحت تلك الصدمة تفعل بي. لم أصدّق أنني خضعت للجراحة بهذه السرعة وأنني نمت على السرير الأبيض في الغرفة البيضاء وأنني أمضيت تلك الأيام بجروح في الصدر والساق والقدم، وأخرى في الداخل، هذا الداخل الذي يسمّى الروح أو اللاوعي أو الباطن... ابنتي الصغيرة تنظر الى جروح الساق بعينين حائرتين ولا تسألني عنها، لكنني أخبرتها أنني وقعت وجُرحت ساقي.

كانت تعلم أنني كنت في المستشفى لكنها لم تدرِ معنى أن ينام والدها في المستشفى طوال ليالٍ وألاّ ينام في البيت. وأعتقد أنها تألّمت بالسرّ. الأطفال لا يحتاجون الى مَن يشرح لهم. إنهم يفهمون على طريقتهم وغالباً ما يصيبون دون أن يعلموا. كان وجه ابنتي يحيط بي، أنظر الى عينيها وأبصر شمساً تشرق وسعهما. كنت فيهما أقرأ وردة الأمل، هذه التي تفتحت في تلك اللحظات الأليمة ناشرة ضوءها. لم أنس لحظة أنني اب وأن فتاة صغيرة تنتظرني وأن الأبوة هي أجمل ما يكتشف المرء في هذه الحياة، حياته. كان ذلك الوجه المشرق ببراءته الصافية، يدعوني بقوّة الى النهوض، الى اكتشاف سرّ الحياة، سرّها الخفي الذي يعرفه الأطفال سهواً.

على الطاولة تركت لي ابنتي أوراقاً رسمت عليها قلوباً بالأحمر. إنها رسائلها إليّ، تقول فيها بلا كلمات كلّ ما كانت تريد قوله، ولم تقله.

أكتب الآن وكأنني أكتب عن جسم واجه نفسه بنفسه، عن جسم ليس جسمي، عن جسم متشبّث بصورته الأخرى، صورته الغائبة.

أكتب الآن، أبصر الجروح التي أصبحت ندوباً تسم الصدر والساق. إنها الأثر الذي يحمله الكائن طوال حياته، الأثر الذي لا يُمحى، الأثر الذي يخفي وراءه حمرة لا ينتبه إليها أحد.

أكتب الآن! لقد عدت حقاً الى الحياة. لقد نهضت من الحفرة التي أغمي عليّ فيها، التي رقدت فيها، بالروح كما بالجسد.

أبصرتُ الباب يُفتح بهدوء ثم دخلت فتاة ترتدي مريولاً أبيض. لم تكن ممرّضة مع أنها ترتدي ثوب ممرضة، نظرت الى وجهها الذي لم يكن غريباً عليّ. أعرف هذا الوجه ولكن لا أعرف مَن هي. عندما ابتسمتْ استعدتُ ملامح وجهها وأخذني قليل من الاضطراب. كيف دخلت هذه الفتاة بلباس ممرضة، كيف سُمح لها أن ترتدي هذا المريول الأبيض وهي في نحو الثانية عشرة من عمرها؟ كانت تبتسم لي ببراءة تامّة، في عينيها بريق تذكّرته للحين. إنها... أجل إنّها فتاة ماضيَّ، الفتاة الأولى التي أحببتها. وجهها لا يزال هو هو، تذكرته جيداً، أتذكره جيداً الآن. لا أدري كم من أعوام مرّت على لقائنا الأخير. لم أرد أن أتذكّر. نظرت الى نفسي ممدداً على السرير الأبيض ثم نظرت إليها. لم تقترب منّي، ظلّت قرب الباب تنظر إليّ وتبتسم، شفتاها نديتان كما كانتا في تلك الأيام، وجنتاها على حمرتهما الخفرة، شعرها الأسود ما زال مرسلاً على كتفيها. نظرت الى نفسي مرّة أخرى حائراً تماماً. ماذا جاءت تفعل هذه الفتاة، من أدخلها، لماذا ترتدي مريولاً أبيض مثل أي ممرضة؟ أذكر أنني حاولت أن أكلمها، ولم أستطع. راح قلبي يخفق كعادته عندما كنت أراها حينذاك. أما هي فلم تلفظ كلمة ولو عابرة. ظلّت تبتسم، وجهها يشعّ بلطافته، نظراتها عذبة، يداها لا تزالان على رقتهما.

قلبي يخفق حباً وربما رهبة، لا أعلم. كلّ ما أعرفه أنني رحت أنقّل ناظريّ بين وجهها والسرير الذي أرقد عليه، بين جسدي وعينيها. خجلتُ، غطيت نفسي جيداً، خبأت الجرح الذي في الصدر وجروح الساق اليسرى. لم أشأ أن تبصر تلك الجروح. وسألت نفسي وأنا أنظر إليها: كيف أمكنها أن تصبح ممرّضة في هذا العمر؟ أقول هذا لئلا أقول في الثالثة عشرة! كيف لم تتغير! كيف لم تكبر، كيف عيناها لا تزالان عينيها اللتين كانتا. تذكرت أيضاً نهديها اللذين لم أرهما إلا من وراء القميص، اللذين حدثتها عنهما غيباً، اللذين كتبت عنهما قصيدة أو لأقل جملاً تتغنّى بهما. نهداها الصغيران اللذان حفظتهما لي، كي أبصرهما وحدي، وأداعبهما وحدي ولم. لم يكن لنا ما اشتهينا وما حلمنا به في مقتبل مراهقتنا. كنت أراها كلّ يوم ذاهبة الى المدرسة بمريول كحليّ، كنت أنتظرها بلهفة وكانت بلهفة تمرّ كي تراني قبل أن تدخل البوابة السوداء، حاملة حقيبتها المدرسية.

ظلّت واقفة أمام الباب تنظر إلي دون مللٍ، وكنت أنظر اليها بخجل. لم أقل لها اقتربي. لم أجرؤ ربّما...

عندما دقّ الباب استيقظتُ، دخلت الممرضة حاملة علبة بين يديها، قالت: صباح الخير، مبتسمة. سألتني إن كنت نمت جيداً، لم أجب. ابتسمت لها. قالت: يجب أن أقيس "الضغط" وأن أفحص الدم قبل وجبة الإفطار. غرزت إبرتها في إصبعي بخفة لم أشعر إزاءها بألم وابتسمت. ثمّ طوقت ساعدي الأيسر بالرقعة السوداء وراحت تنفخ بآلتها. عندما قرأت الأرقام في الساعة الصغيرة ابتسمت أيضاً. حالتك جيدة قالت، قبل أن تغادر.

كنت لا أزال في حالٍ من الذهول. نهضت من السرير بهدوء، نظرت الى الباب، لم أجد أثراً لفتاة الفجر. هل كنت أحلم أم أهذي في حال من السرنمة التي كثيراً ما كانت تحلّ بي. حال من النوم واليقظة، من اللانوم واللايقظة كنت خلالها أستسلم لنعاس رقيق. حاولت أن أشمّ عطرها الذي تذكّرته للحين، لم يكن من عطر في الغرفة. فقط روائح الأدوية المعقمة. لا أدري لما تذكرت العطر الذي كان يفوح منها، من عنقها ويديها. لم يكن عطراً، كان ماء كولونيا كما كنا نسمّيه، ولا تزال رائحته تملأ ذاكرتي حتى الآن، ذاكرة الشمّ لديّ، ذاكرة الحواس كلها. لم أعد أذكر اسم ذاك الماء العطر الذي كان رائجاً آنذاك، ولكن أذكر أنني كنت عندما أشمّ رائحته أعرف أنها هي ولو لم تكن هي دوماً، فرفيقاتها كن يمسحن به أجسادهن أيضاً. ولكن لا أعلم لماذا ارتبطت رائحته بها، بها وحدها. إنها الفتاة التي أحببتها في الرابعة عشرة من عمري، لم أعد أذكر، كانت هي أصغر مني بسنتين أو أكثر. أعوام تبدو الآن بعيدة جداً، كأنها خارج الزمن الذي ما عاد يملكه أحد. ولكن ما الذي أتى بها في ذاك الفجر، ما الذي جعلها تدخل غرفتي من غير أن تنبس بحرف. كانت تبتسم فقط وكنت حائراً أمام ابتسامتها. فتاة لم تتكلم مثلما لم أتكلم أنا أيضاً، شعرت أنني عاجز عن مناداتها. لم يكن لها اسم في ذاك الفجر، أقصد في ذاك الصباح الذي أشرق على أطراف الليل. وما أذكره أيضاً أن السماء خلف النافذة كانت بيضاء عندما دخلت بخفة، سماء تحتلها نجوم زرق مثل تلك التي كنا نعدّها على أصابعنا في ليالي الصيف. تذكرت أيضاً أن هذه الفتاة التي لم أرها منذ

تلك الأعوام الطوال أصبحت ممرضة. هكذا قالت لي صديقة لها، التقيت بها صدفة قبل بضعة أعوام. وكم كنت أمنّي القلب أن أراها يوماً بثوبها الأبيض، أن تكون الى قربي إذا ما أصابني مرض أو أُدخلت مستشفى. وكنت أحلم أن ألقاها ذات يوم مصادفة، هكذا، دون موعد. ولم ألتق بها مرّة. لقد أبصرتها أجل، أقصد حلمت بها، أقصد زارتني في الحلم. إنها المرّة الأولى أبصرها في المنام. كنت فقط أتخيّلها في بعض الليالي، عندما أقبل على النوم، فأغفو أو لا أغفو. لكنها المرّة الأولى تطرق باب النوم وتدخل. لم يفاجئها أنني كبرت لكنني فوجئت بها لا تزال مثلما كانت عندما كنّا، في أول حبنا، العاصف حبنا، البريء والنقي. أين تراها اختبأت طوال تلك الأعوام لئلا تكبر كما كبرت أنا، حبها الأول. إنها هي نفسها، أجل، هي التي أحبتني حتى الموت، التي أحببتها حتى الموت، وكان وعدنا ألا نفترق مهما حصل. صغيرين كنّا ولكن على حبّ لا يعرفه إلا الكبار. لم يكن لهواً، كان حباً، حباً نادراً ما عرفته من بعد، عندما رحت أتقدّم في العمر. حبّ هو الأقوى، حبّ هو الأنصع، والأعذب. حبّ لا أدري كيف كان عنيفاً ورقيقاً في آن، حبّ كان ولهاً، عشقاً مضطرماً بالألم والشجو... أذكر كيف كنا في ليالي الصيف ننظر الى القمر، لتلتقي نظراتنا على صفحته، عندما كانت تفصلنا أيام العطلة الطويلة. كنت أقف على الشرفة وأرنو الى البعيد، وكانت هي أيضاً تطل من شبّاك بيتها القروي لتحدّق مثلي. هكذا تواعدنا وهكذا فعلنا حقاً. كان الصيف موعد فراقنا، وكان خلاله يهبّ الحنين، حنيني الى وجهها وحنينها إليّ. كنت أحبّ وجهها لأنني لم يقدّر لي إلا

أن ألامس وجهها. نهداها ما زلت أحلم بهما، نهداها اللذان لم أرهما، أتخيلهما كلّما فكرت بها، كلّما استعدت وجهها خفية. لم أعرف منها سوى وجهها ويديها اللتين ضممتهما بين يديّ عندما كانت تسنح لنا اللقاءات الجميلة. لم تكن تمرّ لحظة لا أفكر بها، إذا فتحت عينيّ صباحاً، إذا أغمضتهما في المساء، إذا فتحت كتاباً أو سمعت أغنية فيروزية... أذكر أنها أول مَن علّمني كيف أستمع الى فيروز، كيف أصغي الى خفق قلبينا في صوت فيروز. وما أجمل ما كانت تلك الأماسي الربيعية نقضيها على السطح، تحت العريشة، نستمع الى مطربتنا تغنّي الليل والحبّ والفراق... لم نكن وحدنا تحت العريشة المورقة صيفاً، لكنّ نظراتنا كانت تصنع لنا زاوية نتعانق فيها خلسة، كانت تصنع لنا غرفة وكنبة... وما أجمل ما كان لقاؤنا في الكنيسة، في باحتها أو داخلها. كنت أنظر إليها وتنظر إليّ، نصلّي ونحلم فيما رائحة البخور تهبّ في الأرجاء. كانت الكنيسة أيضاً فسحة لنا، ننتظر القداديس لنلتقي بلا خشية، لنلتقي ببراءة يهفّ منها عطر فردوس طالما سمعنا عنه. كانت تقطن بالقرب من بيتنا وكنت كلّ يوم أراها وكنا نتبادل الرسائل كما لو أننا على فراق. كنا نكتب على ورق مزيّن وكان يحلو لها أن ترسم حول الكلمات أزهاراً وقلوباً.

لا أدري ما الذي جعلها تدخل ليلي. فتحت الباب ودخلت، لم توقظني، وحدي فتحت عينيّ! كنت أظن أنني لن أبصرها، كنت أعلّل نفسي أن أراها ذات يوم، لأنظر الى وجهها بعد تلك الأعوام، لأعتذر لها عن تلك اللحظة التي افترقنا فيها، لأقول لها إنني أحببتها كما لم أحب من بعد، لأقبّل يديها بعد تلك السنين!

كانت لحظة فراقنا أشدّ اللحظات ألماً، كيف يفترق فتى وفتاة ليس بينهما سوى الحبّ! إنها الحرب، أذكر، الحرب في عامها الأول 1975. غادرت الحيّ قبلي ثمّ غادرت بدوري. كانت قريتها بعيدة مثلما كانت القرية التي لجأنا إليها بعيدة. إنها الحرب لا أكثر ولا أقلّ. الحرب التي اشتعلت من حولنا، التي هجّرتنا، التي أشعلت حديقة ماضينا، فردوسنا الذي لم أكتشفه إلا بعد أعوام. الحرب التي كنا من أوائل ضحاياها. الحرب التي رسمت خطاً بالأحمر بين فتى وفتاة، يشبه خط التماس الذي رُسم بالأحمر والأسود بين الأرض وظلّها.

أتذكّرها، لكنّ صورتها غائمة في الذاكرة. لماذا أتذكّرها، هي التي لم أرها يوماً في ثوب ممرّضة؟